والناس اولاد علاّتٍ فمن علموا أن قد أقلّ فمهجورٌ ومحقورُ
وهم بنو الأم لما ان رأوا نشباً فذاك بالغيب محفوظٌ ومنصورُ
والخير والشرّ مقرونان في قرَنٍ فالخير متّبعٌ والشرّ محذورُ

فلما قدم على كسرى اخبره بقول سطيح فقال كسرى : الى ان يملك منا اربعة عشر ملكاً تكون امور . فملك منهم عشرة في اربع سنين وملك الباقون الى زمن عثمان . وكان من أمر انقلاب دولتهم ما كان[1]

اسكندر عمون

نابوليون الأول وحرب روسيا

وضع الكونت لاون تولستوي، الكاتب الروسي المشهور ، كتاباً تحت عنوان « نابوليون وحرب روسيا » وصف فيهِ فظائع تلك الحرب الهائلة بأسلوبٍ انتقادي خطّأ فيهِ مزاعم معظم المؤرخين الفرنسيس والروس الذين أسهبوا في الكلام على تلك الحرب ، وسفّه آراءهم من مثل ايجاد مؤرخي الفرنسيس أعذاراً لعاهلهم تنصّلهُ من تبعة تلك الحملة التي هلكت فيها مئات الالوف من البشر ، وا نفقت في سبيلها القناطير المقنطرة من المال ، ومثل ادعاء مؤرخي الروس ان قيصرهم وقادة جيوشهِ تمكنوا بدهائهم من القاء الفرنسيس في تلك الورطة التي فغرت فاها وابتلعتهم . ولما كان تولستوي ينظر الى نابوليون بغير المقلة التي ينظر بها اليهِ السواد الأعظم من بني الطينة ، أحببنا ان ننقل لقراء « الزهور » الكرام الفصل الاخير من الكتاب المذكور وننشره لهم على علاتهِ ، فاسحين على صفحات هذه المجلة مجالاً لأقلامهم

(١) لهذا الفصل بقية سننشرها في الجزء الآتي مع فصولٍ اخرى كتبها عمون بك في مباحث شتى عن العرب قبل الاسلام كما أشرنا الى ذلك

لعلهم يتحفوننا بما يعنُّ لهم من الملاحظات في الموضوع الذي نحن في صدد الكلام عنهُ . قال تولستوي :

﴿ نابوليون واسكندر الأول ﴾

اذا جارينا المؤرخين في ان الرجال العظام يسيرون بالانسانية الى غايات معلومة ، وأن الموازنة الأوروباوية ، وانتشار الافكار الثورية ، وعمران البلدان وغير ذلك من الأغراض تتعلق بعظمة الدولتين الروسية والفرنساوية ، تعذَّر علينا والحالة هذه ان نفسِّر معاني الحوادث التاريخية دون ان نجعل للصدفة والدهاء شأناً فيها

ولو كانت الغاية من الحروب الأوروباوية التي شبت نيرانها في مفتتح هذا القرن (التاسع عشر) اعلاء شأن الدولة الروسية لكان من الممكن ادراك تلك الغاية بغير الحروب التي سبقتها وبغير تلك الغزوة

ولو كانت عظمة فرنسا هي الضالة المنشودة لكان من المستطاع اصابتها بغير الثورة والامبراطورية

ولو كان الغرض الذي يرمون اليهِ نشر الافكار الثورية لكانت الكتب أسهل منالاً له من الجنود

ولو كان رفع منار العمران هو الحاجة التي يطلبونها ، لسهل عليهم قضاؤها بذرائع أنجع من اهلاك عباد الله ونهب أشيائهم

ولماذا جرت الحوادث في هذا المجرى ، ولم تجرِ في غيره ؟

ان التاريخ يجيب ان الصدفة أوجدت الحالة ، فاستفاد منها الدهاء

ولكن ما هي « الصدفة » وما هو معنى لفظة « دهاء » ؟

ان كلمتي صـدفة ودهاء لا تعبّران عن شيء موجودٍ في الحقيقة .
وهذا هو السبب الذي يجعل تحديدهما متعذّراً

فهما لا تدلاّن الاّ على طريقة واحدة يستعان بها على ادراك حقائق الأمور . اني أجهل مثلاً سبب هذا الحادث ، ويجري في وهمي اني أعجز عن فهمهِ ، ومن جراء ذلك لا اعالج الوقوف على كنههِ ، فأقول ان الصدفة هي التي أوجدتهُ

اني أرى قوةً تنتج عملاً لا ينطبق على صفات البشر المألوفة ، وحين تصعب عليّ معرفة سبب تلك القوة ، أقول ان هذا ضرب من ضروب الدهاء

ان الخروف الذي يضعهُ الراعي كل مساءٍ في حظيرة خصوصية ، ويقدّم له طعاماً زائداً ، يفوق من جراء ذلك رفاقهُ في السمن ، ويبين لأولئك الرفاق انّ في أمرهِ شيئاً من الدهاء ، على ان الحقيقة هي ان ذلك الخروف ، بدلاً من ان يدخل كل مساء الحظيرة العمومية مع رفاقهِ يفرز في حظيرة خاصة يقدّم له فيها العلف . وحين يسمن ذلك الخروف ، يذبح ويباع للجزار ، فيؤثر ذلك الأمر في باقي الغنم ، ويبين لها انهُ نتيجة من نتائج الدهاء المقرون بسلسلة من سلاسل الصدف الغريبة

ولو لم تعد الغنم تعتقد ان كل ما يجري يرمى بهِ الى غاياتٍ تتعلق بها دون سواها ، ولو زعمت ان الحوادث الطارئة تجري الى غاياتٍ تجهل حقيقتها ، لنتجات لها للحال وحدةٌ في العمل ، وتعاقب منطبق في كل ما يطرأ على الخروف الذي يُسمّن

ان الغنم وان لم تكن تدرك الغاية من تسمينهِ ، تدرك انهُ لم يحدث

شيء من الذي حدث للخروف من باب البداهة ، ولا تحتاج الى تفسير معناهُ الى الالتجاء الى الصدفة أو الى الدهاء . انّا لا نكتشف في حياة الاشخاص المذكورين في التاريخ تعاقباً منطيقياً للحوادث التي تقتضيها الضرورة الآحين نعرض عن معرفة غاية الاشياء الاخيرة باعترافنا ان فهمنا يقصر عن الوصول اليها . فحينئذٍ يتجلى لنا سبب التفاوت بين أعمالهم ومقدرة الاشخاص العاديين ولا نعود محتاجين البتة الى الاعتقاد بكلمتي صدفة ودهاء . وبناءً عليهِ نقول انهُ يكفينا أن نعتقد انا نجهل الغرض من حركات الشعب الاوروباوي وانا لا نعلم الاّ الحوادث الناشئة عن المجازر التي جرت في فرنسا وبروسيا والنمسا وروسيا وان الداعي لتلك الحوادث هو زحف الشعوب الغربية على الشعوب الشرقيـة وبالعكس أي زحف الشعوب الشرقيـة على الشعوب الغربية . وحسبنا الاعتقاد بهذه الأمور حتى لا نعود نجد شيئاً من الدهاء والشذوذ في صفات نابوليون واسكندر الاول ولا نعود نعتبر ذينك العـاهلين الاّ رجلين مثل سائر الرجال ولا نعود فقط محتاجين الى ان نفسر بالصدفة معنى الحوادث الصغيرة التي صيرت ذينك الرجلين في الحالة التي كانا عليهـا بل يتضح لنا بجلاء ان تلك الحوادث الصغيرة لم يكن بدٌّ منها

وحين نهمل امر المسير الى الغاية النهائية ندري انهُ كما يتعذر وجود ازهار وبذور لنبات من النباتات غير الازهار والبذور التي له، يتعذر وجود شخصين من الاشخاص الذين ينوه عنهم التاريخ يستطيعان على مثال الاسكندر الاول ونابوليون من مفتتح حياتهما الى مختتمها ان ينهضا كل

النهوض باعباء المهمة الملقاة مقاليدها اليهما

ان السبب الاصلي للحوادث الاوروباوية في فاتحة هذا العصر منشأهُ الحركات الحربية التي اجرتها في بدء الامر الشعوب المحتشدة للزحف من الغرب على الشرق وفيما بعد من الشرق على الغرب

كان بدء هذه الحركة في الغرب وكانت الامور الآتية تدعو الشعوب الغربية الى الاغارة على الديار الروسية والتوغل فيها حتى موسكو :

١ً ان تلك الشعوب كانت متكاتفةً تكاتفاً حربياً يمكنها من تلقّي صدمة مجموع الشعوب الحربية الشرقية

٢ً انها نبذت كل تقاليدها وعاداتها

٣ً انها كانت تأتمر لاجراء تلك الحركة الحربية بأمر رجل تمكن من تزكية نفسهِ وتبرئة ساحتها باستعاذتهِ بالكذب والنهب والقتل لادراك غايتهِ . ان الثورة الاصلية الصغيرة المنتمية الى الثورة الفرنساوية الكبرى تبددت من جراء صغرها . وتغيرت التقاليد والعادات فتألفت شيئاً فشيئاً جماعة جديدة ونشأت معها تقاليد وعادات جديدة وفي ذلك الوسط نهض للاضطلاع بمهمتهِ الرجل الذي ساقتهُ الاقدار يوماً من الايام الى ترأُّس الحركة وحمل اعباء مسئولية الحوادث التي توالت . ان ذلك الرجل الذي لم تكن لهُ مبادئ ولا عادات ولا تقاليد ولا اسم والذي لم يكن فرنساوياً هادنتهُ الاحداث مهادنةً غريبة وعرَضية فنال ما وصلت اليهِ يدهُ في أول الأمر وتدخل مع جميع الاحزاب التي كانت تلقي الشقاق في فرنسا دون أن يعتصم بحبل واحدٍ منها وكان من أمرهِ انهم رفعوهُ الى أعلى درجة

ان جهل المحيطين بهِ وضعف خصومهِ وعدم الاعتداد بهم واخلاصه في الكذب وضيق دائرة عقلهِ الذي تكتنفهُ الدعوى دفعت ذلك الرجل الى تولي زعامة الجيش

ان حسن الانتظام في جيش الحملة الايطالية وما أبداهُ العدو من الرغبة عن القتال وثقة ذلك الرجل بنفسه وجرأته الوهمية كانت مرقاة الى مجدهِ العسكري . وقد رافقتهُ في كل شيء صدف سعيدة على زعم البعض وكان أولياء الامور في فرنسا ينظرون اليهِ شزراً الاَّ ان تلك المعاملة كانت مساعدةً لهُ على نيل رغائبه

ان المساعي التي بذلها لتغيير الخطة التي توخى انتهاجها احبط الواحد منها بعد الآخر، فالدولة الروسية أبت أن تدخلهُ في خدمتها والدولة العثمانية نبذت ما كان يعرضهُ عليها من الخدمة

وفي حرب ايطاليا كان غير مرةٍ الخطر أدنى اليهِ من قاب قوسين بيد ان احوالاً غير منتظرة كانت تخرجهُ من تلك الورطة الوبيلة

ان الجنود الروسية التي كانت قادرة على تقويض أركان مجدهِ بجميع أنواع التدابير السياسية لم تطأ أوروبا بأقدامها مدة بقائه فيها

ولدن رجوعه من ايطاليا وجد الحكومة الفرنساوية في حالة من الانحلال تقضي على الاشخاص المتألفة منهم بأن يتواروا أو يهلكوا . فكأنَّ الخروج من تلك الحالة المصحوبة بالخطر على نابوليون قد عرض من غير سعيٍ ولا تمهيد وكان ذلك الأمر عبارة عن حملتهِ الى أفريقيا وهي حملة لا محل لها من الاعراب تدلُّ على الحماقة

وعادت الصدفة الى خدمته بنوع عجيب فان مالطة المعتبرة منيعةً جدًّا استسلمت اليهِ بغير حربٍ وان عزائم نابوليون التي لم تكن تخلو من التغرير بالنفس كللها النجاح

وترك أسطول العدو أي أسطول الانكليز جيشاً برمتهِ يمرُّ في عرض البحر على انهُ بعد قليل من الحين لم يعد يأذن لمركب وان زورقاً ان يمرّ على متن اللجة

وفي أفريقيا ساق كثيراً من الفظائع الى قوم عزَّل على التقريب وكان الرجال الذين أتوا تلك المنكرات وخصوصاً زعيمهم يزعمون ان ما أجروهُ عظيم وجميل وانهم يجنون من أدواحهِ ثمار المجد وان مآثرهم الخطيرة تحكي مآثر قيصر والاسكندر المقدوني

وان تصوراته الوهمية بالمجد والسؤدد التي لم يكن من شأنها فقط الاحجام عن اقتراف الجرائم بل الافتخار بها والنسبة اليها معنى يفوق الطبيعة والتي ستكون هادياً لهذا الرجل ولجميع مريديهِ وأشياعهِ أطلقت حريتها للاستعداد في أفريقيا

وأفضى كل ما عالجه الى الفوز فان الطاعون تجاوزهُ ولم يُعتبر قتلهُ الأسرى جناية تلصق به

وان انطلاقهُ المعجل الوهمي الخالي من السبب والدالّ على النذالة لتركهِ وراءهُ رفاقهُ في حال الضيق عدَّهُ لهُ بعضهم فضيلةً وقد مكَّنهُ الاسطول الانكليزي مرة ثانية من النجاة

فحينئذٍ انبهر من تلك الجرائم التي فتحت في وجهه باب السعادة

وانتهى الى باريس دون ان يكون له غاية مقررة . فالحكومة الجمهورية التي كانت منذ سنة من الزمان تقدر ان تهلكهُ كانت في حالة من الانحلال أوصلتها الى شفير الدمار وكان حضور ذلك الرجل الذي لم يكن ينتمي لحزب من الأحزاب مدرجة لارتقائهِ الى مكانة عالية . ولم يكن قد رسم له أدنى خطة بل كان يخاف كل شيء الاَّ ان الأحزاب اعتقدت ان فيهِ نجاتها ولذلك التمست مساعدتهُ

فهو وحده بما كان يجول في خاطره من أوهام المجد والعظمة وما كان يساورهُ من تلك الأحلام في ايطاليا وفي مصر وما كان فيهِ من الاعجاب بنفسهِ والجرأة على ارتكاب الجرائم والاخلاص في الكذب يستطيع ان يحقق تلك الحوادث الموشكة ان تتمّ

وكان هو الشخص اللازم للحلول في المركز الذي كان يتوقعهُ وقد اشترك بغير ارادتهِ ومع فقدان الخطة الواجب الجري عليها ومع ما كان هو عليهِ من التردد ومع ما كان يأتيه من الهفوات في تدبير مكيدة يراد بها القبض على ازمة السلطة فكان الفوز موالياً لهُ

فدفعوهُ الى وسط جلسة كان الديركتوار قد عقدها فذُعر وصمم على الهرب لتوهمهِ انهُ قد هوى الى وهدة العطب فادَّعى انحراف الصحة وفاه بكلمات خالية من المعنى كادت تكون القاضية عليهِ

ولكن الاشخاص الذين كانت حينئذٍ حكومة فرنسا مؤلفة منهم وكانوا قبل ذلك الحين كبار النفوس وراجحي الحصاة شعروا في تلك الساعة بأن دورهم قد انقضى وكانوا أشد اضطراباً من نابوليون نفسهِ ففاهوا

بخلاف ما كان يجب عليهم التفوه به للمحافظة على السلطة وخذل المختلس

ان الصدفة او بالحري ملايين من الصدف ساقت اليهِ السلطة وان جميع الناس قد اتفقوا على تثبيت تلك السلطة كأنهم قد تداولوا في ذلك الأمر . ان الصدفة أوجدت ضعف اخلاق اعضاء الديركتوار الذي حملهم على الخضوع لنابوليون

ان الصدفة منحت بولس الأول تلك الاخلاق وجعلتهُ يعترف بسلطة نابوليون

ان الصدفة كادت لهُ تلك المكيدة التي ثبتت صرح سلطتهِ بدلاً من ان تنقض دعائمها

ان الصدفة اسلمته البرنس « دنفين » ومكنتهُ من الفتك بهِ بنوع لم يكن منتظراً وقد برهن هذا العمل اكثر من سواهُ للملإِ طرًّا ان لنابوليون الحق باجرائهِ لان القوة بجانبهِ

ان الصدفة جعلتهُ يستنفد الميسور لتأليف حملة على انكلترا وهو مشروع يؤول الى هلكتهِ ويتعذر وضعهُ موضع الاجراء بيد انهُ وقع على غير انتظار على « ماك » والجيش النمساوي الذي استسلم من غير ما حرب ولا قتال

ان الصدفة والدهاء جعلاهُ ينتصر في أوسترليتز وقد اعترفت بالصدفة جميع الأمم وأوروبا بأسرها ما عدا انكلترا التي لم تشترك في الحوادث الموشكة أن تجري مع ما كانت جرائم نابوليون تثيرهُ في أفئدتها من النفور والفظاعة بسلطتهِ واللقب الذي انتحلهُ لنفسهِ وأوهام المجد والعظمة

التي كان جميع الناس يجدونها جميلة ومعقولة

وكانت قوات الغرب التي كان يبين انها تتهيأ لاجراء حركة في المستقبل تعظم وتتثبت أركانها بعد ان كانت قد رمت بأنظارها غير مرة الى الشرق في السنوات ١٨٠٥ و١٨٠٦ و١٨٠٧ و١٨٠٩

وسنة ١٨١١ اتحدت العصابة التي تألفت في فرنسا مع شعوب الوسط وانشأت مجموعاً هائلاً

وكان مع تعاظم ذلك المجموع يتعاظم تبرئة ذلك المترأس عليهِ من تبعة المسئولية

وكان ان ذلك الرجل في خلال السنوات الست التي جرى فيها الاستعداد للحركة العظيمة تولى العلاقات مع جميع عهال أوروبا وملوكها وأمرائها . وان الاقيال الذين فقدوا تيجانهم لم تكن أوهامهم المعقولة مما تقاوم بهِ الاوهام غير المعقولة التي ابتدعها نابوليون لنيل العظمة والمجد . وقد بادر الواحد منهم بعد الآخر ليبينوا لهُ انهم ممن لا يُعتَدُّ بهم

وأرسل ملك بروسيا زوجتهُ الملكة الى ذلك الرجل العظيم طمعاً بنيل الحظوة لديهِ واعتبر عاهل النمسا ان ذلك الرجل يوليهِ نعمةً كبرى باقترانهِ بابنتهِ وجعل البابا حارس القداسة في البشر الدين قاعدةً لتمثال مجد ذلك الرجل العظيم[1]

(١) في الجزء القادم تتمة رأي تولستوي في نابوليون والاسكندر